العدول من الغائبة إلى المخاطبة

ومن المخاطبة إلى الغائبة

في القرآن الكريم

إعداد

م.م إسراء جميل شريف

كلية الإمام الأعظم / الرمادي

isl.abdullahe@uonbar.edu.iq

Issn : 2071- 6028

Issn : 2071- 6028

المقدمة

الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا والصلاة والسلام على رافع لواء الهدى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والداعين بدعوته...أما بعد:

فالحمد لله في الأول والآخر على إنعامه علي بالإسلام ، ثم الحمد والشكر له على ما من به وتكرم في أن سهل لي طريقا للفوز بكوني ممن وضعت قدما على خطوة متواضعة في طريق تعلم القرآن وتعليمه ؛ وذلك مما يسره سبحانه وتعالى لي عندما جعلني اظفر بموضوع يعنى بدراسة القرآن الكريم وبيانه.

وكلما أمعنت النظر والتدقيق والموازنة ازددت بذاك يقينا وبصيرة وانتهيت إلى حقيقة مسلمة بالنسبة إلي وهي أن هذا القران لا يمكن أن يكون من كلام البشر وأن الخلق أولهم وآخرهم لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القران لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

فالتعبير القرآني تعبير فريد في علوه وسموه وانه أعلى كلام وارفعه وانه بهر العرب فلم يستطيعوا مداناته والإتيان بمثله مع أنه تحداهم أكثر من مرة.

ولم يقتصر التعبير القرآني اهتمامه على الألفاظ أو الجمل وإيثارها ، وإنما وسع اهتمامه إلى ما يجعله يتوخى الدقة لمعاني ألفاظه من قصده أساليب معينة في عرض هذه الألفاظ وتراكيبها ، وذلك لما بين المعنى وأسلوب التعبير عنه من شدة الصلة ، فنحن نراه يستعمل العدول حيث تدعو الحاجة إليه .

فان لغتنا العربية تتحلى بألوان من الجمال وأنواع من المفردات والجمل الحسان فتزداد حسنا وتزدان رقة ودقة ولطفا وتفيض حسنا وبهاء، يجد ذلك من يدانيها ويلمسه من يعانيها دراسة وقراءة وتأملا بما اشتملت عليه من مختلف الدلالات والاستعمالات

ولأهمية موضوع العدول في القرآن الكريم وجدت من المناسب أن أدلو بدلوي بجزئية مهمة من هذا الموضوع المهم ألا وهو (العدول من الغائبة إلى المخاطبة ومن المخاطبة إلى الغائبة في القرآن الكريم)، ورأيت أن أقسم البحث على مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة .

أما المقدمة فقد ذكرت فيها سبب اختياري للموضوع وخطة البحث ، أما التمهيد فقد قمت بتقسيمه على قسمين الأول التعريف بالعدول (لغة واصطلاحا)، والثاني (العدول في القرآن الكريم) بصورة موجزة .

أما تقسيم المباحث فكان كالآتي :

المبحث الأول : العدول من الغائبة إلى المخاطبة .

المبحث الثاني : العدول من المخاطبة إلى الغائبة .

Issn : 2071- 6028

أما الخاتمة فقد ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في بحثي المتواضع هذا، وعملت قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدتها خلال كتابتي ... و ما دفعني إلى دخول ميدان البحث في هذا المجال هو حب البحث في كل ما يتعلق بكتاب الله، فان أصبت فذلك الفضل من الله وإلا فهي محاولة ...

والله يهدي إلى الحق وهو نعم المولى ونعم النصير ..

الباحثة

تمهيد

أولا : العدول (لغة واصطلاحا):-

للجذر (ع.د.ل) دلالتان ترجع إحداهما إلى الأخرى، وإحدى هاتين الدلالتين العدل بمعنى الاستواء أو المساواة . وهذا المعنى متأت من معادلة الجمل على الدابة بأن يجعل طرفاه على استواء واحد ، ويقال لكل طرف عدل ، ولا يتأتى هذا المعنى إلا بالتحريك والإمالة ، ومن هنا جاءت الدلالة الثانية وهي بمعنى الميل . قال الخليل : (والعدلان : من الحملان على الدابة من جانبين ، وجمعه أعدال ،عدل أحدهما بالآخر في الاستواء كي لا يرجح احدهما بصاحبه ، والعدل إن تعدل الشيء عن وجهه فتميله ، وعدلته عن كذا ، وعدلت أنا عن الطريق ، والعدل أحد حملي الجمل ، لا يقال إلا للحمل ؛ وسمي عدلا لأنه يسوى بالآخر بالكيل والوزن)[1].

وتقول: هو يعدل أي : يحكم بالحق والعدل ، وعدلت الدابة عن كذا : أي : عطفتها فانعدلت[2].

قال ابن منظور (٧١١هـ) :(عدل العدل: ما قام في النفوس أنه مستقيم ، وهو ضد الجور. عدل الحاكم في الحكم يعدل عدلا وهو عادل ، وبسط الوالي عدله ومعدلته ، والعدل : ان تعدل الشيء عن وجهه ، تقول : عدلت فلانا عن طريقه وعدلت الدابة إلى موضع كذا)[3].

ودلالة العدول على الميل متأتية من معادلة الأحمال ، إذ لابد من إمالتها عند تسوية بعضها ببعض ، ومن هنا أشكل على ابن فارس (٣٩٥هـ) فجعل للجذر (ع.د.ل) (أصلين صحيحين، لكنهما متقابلان كالمتضادين ، أحدهما يدل على استواء والآخر يدل على اعوجاج)[4]. وهو في الحقيقة أصل واحد وهو الميل.

---

١ – العين ٢/ ٣٨_٣٩ .

٢ – ينظر :المصدر نفسه .

٣ – لسان العرب:١١/٤٣٤_٤٣٥ مادة عدل .

٤ – مقاييس اللغة: ٤/٢٤٦ .

Issn : 2071- 6028

ومما تقدم إن العدول ليس ميلا وخروجا عن حد التوسط والمساواة، وإنما هو ميل وخروج إليهما ، بمعنى أنه يتضمن دلالة الميل المنضبط المقصود ، لا دلالة الخروج الشاذ الذي هو بمعنى الجور .

أما اصطلاحا فلا بد أن يكون في العدول طرفان طرف معدول عنه هو الأصل أو القياس ، وطرف معدول إليه هو الفرع أو خلاف القياس ،ولذا عرفه السجلماسي المتوفى في القرن الثامن الهجري بقوله : (اسم محمول يشابه به شيء شيئا في جوهره المشترك لهما)[١].

فالمشابهة بين شيئين في الجوهر المشترك لهما تتطلب أن يكون أحد هذين الشيئين أصلا والآخر فرعا، وهو في اللغة كذلك ، لأن العدول عن طريق يعني الدخول في طريق آخر .

وقد حاول أحد الباحثين وضع تعريف جامع مانع يميز فيه بين القول الأدبي وغير الأدبي ،حيث عرف العدول بأنه: (مجاوزة السنن المألوف بين الناس في محاوراتهم ، وضروب معاملاتهم، لتحقيق سمة جمالية في القول تمتع القارئ، وتطرب السامع، وبها يصير نصا أدبيا)[٢].

وقد نال موضوع العدول اهتماما واسعا في مصنفات علماء العربية ،وقد تواردت عليه مصطلحات مختلفة منها : المجاز، والالتفات ،والعدول ،والانحراف،والتصوف، والنقل ، والخروج، والتجاوز، والاتساع ، والشجاعة،والانتقال ، ومخالفة مقتضى الظاهر،والانعطاف، والتلون والتلوين[٣].

وهذه المصطلحات لا تنفك في الدلالة على مفهوم العدول ، ولكن باعتبارات متفاوتة إذ هو في اعتبار البلاغيين يخص المستوى التركيبي للغة ، وأطلقوا عليه المجاز والالتفات ، وذلك متأت عندهم من اهتمامهم بتبيان اللمحات الفنية التي تضمنها النصوص الإبداعية .

ثانيا : (العدول في القرآن الكريم) :-

لقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وهذا يعني أنه اختيار من بين إمكانات لغوية كثيرة أتاحتها ثروة العربية وغناها، ثم إنا إذا فصلنا بين اختيار متكلم من البشر واختيار خالق كل شيء تبين لنا وجه مفارقة الأسلوب القرآني للأسلوب البشري من حيث إن طبيعة الإنسان، مهما كانت ثقافته ، ومهما اتسعت معارفه، تجعله لا يستطيع أن يطوع ألفاظ اللغة لكل مما يتصوره ، من دقائق الماضي ، ولطائف الأخيلة [٤] ، ولهذا قيل كلام الله _ جل ثناؤه _ أعلى وأرفع من أن

---

١ – المنزع البديع : ٤٤٨

٢ – رؤية في العدول عن النمطية في التعبير الأدبي : ٥ .

٣ – ينظر: مجاز القرآن: ٩/١ ،و البديع: ٥٨ ، إعجاز القرآن: ٢٧٣ .

٤ – ينظر : مباحث في إعجاز القرآن : ١٤٥ .

Issn : 2071- 6028

يضاهى أو يقابل أو يعارض به كلام ، وكيف لا يكون ذلك كذلك ، وهو كلام العلي الأعلى خالق كل لغة ولسان[١] .

لقد تهيأ لأسلوب القرآن الكريم أن يكون عدولا عما تعارفه الناس من الكلام ، ولقد تهيأ أيضا لعلماء الإعجاز أن يرصدوا عدوله فتتبعوا خصائصه وكشفوا عن وجه الجمال في بيانه . منهم الرماني الذي جعل عدول القرآن الكريم في نقض العادة ، فقال : (أن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفه ، منها الشعر ومنها السجع ومنها الخطب ومنها الرسائل ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة ، لها منزلة في الحسن تفوقه به كل طريقة)[٢].

وأينما وجد العدول في التعبير القرآني وجد التركيب الفني والجمالي ، والقرآن الكريم كأثمن نص تعبيري باللغة العربية وظف هذه البنية العدولية من خلال عدوله من المخاطبة إلى الغائبة ومن الغائبة إلى المخاطبة .

ولذا فالتلوين بالعدول في سياقات القرآن الكريم يهدف أولا، وقبل كل شيء، إلى إثبات فرادة النص القرآني ،وثانيا إلى تنوير الدلالات الجمالية المتولدة عن مثل هذا العدول . ولنحاول الآن الوقوف على بعض من هذه الألوان العدولية من خلال النصوص القرآنية ، محاولين تلمس جماليات العدول في القرآن الكريم .

المبحث الأول

العدول من الغائبة إلى المخاطبة

في ضوء المفهوم الواسع للعدول نود أن نحدد أبرز المجالات التي تحقق فيها القران الكريم ، وأن نتوقف في تناولنا التفصيلي لكل مجال منها إزاء بعض الصور، أو العبارات القرآنية التي تنتمي إليه ، كي نستجلي بعض ما يومض به هذا اللون البلاغي التعبيري فيها من قيم وأسرار ، مستأنسين في كل صورة نعرض لها بقرائنها السياقية أو المقامية من جهة ، وبتوجيه البلاغيين أو المفسرين لها _إن وجد _ من جهة أخرى .

وأحد هذه المجالات هي :(العدول من الغائبة إلى المخاطبة ومن المخاطبة إلى الغائبة في القران الكريم) .

---

١ – ينظر : الصاحبي : ٤١ .

٢ – النكت:١٠٢ .

Issn : 2071- 6028

ونود فيما يلي _ أن نتوقف إزاء كل صورة من تلك الصور كي نستلهم بعض ما تفيض به تجلياتها في البيان القرآني من قيم وأسرار .

فمن ذلك قول الحق تبارك وتعالى: (الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{٢} الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ{٣} مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ{٤} إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{٥}) [١] ففي الآية الأخيرة: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ...) تحول إلى طريق الخطاب عن طريق الغيبة الذي وردت عليه الآيات السابقة عليها .

انه لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك، أي : يامن هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة ، ليكون أدل على الاختصاص وللترقي من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود ،فكأن المعلوم صار عيانا والمعقول مشاهدا والغيبة حضورا، بني أول الكلام على ما هو مبادي حال العارف من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه والنظر في آلائه والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه وباهر سلطانه ، ثم قفى بما هو منتهى أمره وهو أن يخوض لجة الوصول ويصير من أهل المشاهدة فيراه عيانا ويناجيه شفاها ، ومن عادة العرب التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تطرية له وتنشيطا للسامع ، فيعدل من الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس[٢] كقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ{٢٢})[٣،٤] .

قال الشعراوي في تفسيره: (إذن فهناك حاضر وغائب ومتكلم.. الغائب هو من ليس موجودا أو لا نراه وقت الحديث... والمتكلم هو الذي يتحدث.. وقضايا العقيدة كلها ليس فيها مشاهدة، ولكن الإيمان بما هو غيب عنا يعطينا الرؤية الإيمانية التي هي أقوى من رؤية البصر. فالله سبحانه وتعالى حين يقول: الحمد لله رب العالمين _الله _غيب و_رب العالمين_ غيب و_الرحمن الرحيم_غيب و_مالك يوم الدين_ غيب وكان السياق اللغوي يقتضي أن يقال: إياه نعبد. ولكن سبحانه وتعالى غير السياق ونقله من الغائب إلى المخاطب وقال: _إياك نعبد_ ، فانتقل الغيب إلى حضور المخاطب .. فلم يقل إياه نعبد .. ولكنه قال: _إياك نعبد_ فأصبحت رؤية يقين إيماني)[٥].

---

١ – سورة الفاتحة من الآية (٢_٥)

٢ – أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٧/١ ، وينظر :فتح القدير: ١٠/١ .

٣ – سورة يونس آية/ ٢٢ .

٤ – الكشاف: ٧/١ .

٥ – تفسير الشعراوي: ١/ ٧٧.

Issn : 2071- 6028

ومن المواطن التي فيها عدول من الغائبة إلى المخاطبة قوله تعالى:(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ{٨٣})[١]

يقال :لم خوطبوا بـ (قولوا) بعد الإخبار؟ والجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: انه على طريقة الالتفات كقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم)

الثاني : فيه حذف أي قلنا لهم قولوا .

الثالث : الميثاق لا يكون إلا كلاما كأنه قيل : قلت لا تعبدوا وقولوا[٢].

قال الالوسي : (قال: (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ) أي أعرضتم عن الميثاق ورفضتموه، و_ثم_ للاستعباد أو لحقيقة التراخي فيكون توبيخا لهم بالارتداد بعد الانقياد مدة مديدة وهو أشنع من العصيان من الأول وقد ذكر بعض المحققين أنه إذا جعل ناصب الظرف خطابا له (ﷺ) والمؤمنين فهذا التفات إلى خطاب بني إسرائيل جميعا بتغليب أخلافهم عن أسلافهم لجريان ذكرهم كلهم على نهج الغيبة)[٣].

ومن المواطن القرآنية للتحول من الغائبة إلى المخاطبة قوله تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ) ثم قال : (تَاللّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ)[٤]

حكى الله سبحانه نوعا من قبائح أعمالهم فقال: (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ)[٥]..

أي: يقع منهم هذا الجعل بعد ما وقع منهم الجؤار إلى الله سبحانه في كشف الضر عنهم ، وما يعقب كشفه عنهم من الكفر منهم بالله والإشراك به ، ومع ذلك يجعلون لما لا يعلمون حقيقة من الجمادات والشياطين نصيبا مما رزقناهم من أموالهم يتقربون به إليه . وقيل : المعنى أنهم ، أي الكفار يجعلون للأصنام، وهم لا يعلمون شيئا لكونهم جمادات ، ففاعل (يعلمون) على هذا هي الأصنام وأجراها مجرى العقلاء في جمعها بالواو والنون، جريا على اعتقاد الكفار فيها، وحاصل المعنى: ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام. التي لا تعقل شيئا نصيبا من أموالهم التي رزقهم الله إياها (تالله لتسئلن عما كنتم تفترون). هذا رجوع عن الغيبة إلى الخطاب. وهذا السؤال سؤال تقريح

---

١ – سورة البقرة آية/٨٣ .

٢ – التفسير الكبير:٢/٢٠٢ .

٣ – روح المعاني: ١/٣٩٠ .

٤ – سورة النحل آية/٥٦ .

٥ – سورة النحل آية / ٥٦ .

Issn : 2071- 6028

وتوبيخ (عما كنتم تفترون). تختلقونه من الكذب على الله سبحانه في الدنيا ، وقيل فيه مبالغه في التهديد[١].

ومن العدول من الغائبة إلى المخاطبة الذي ورد في قوله سبحانه وتعالى (وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)[٢].

فان قلت: لم عدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله : (نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ) ثم رجع إلى الخطاب ؟ قلت : للإيذان بأنه مما خص به و أوثر، ومجيئه على لفظ النبي للدلالة على أن الاختصاص تكرمه له لأجل النبوة، وتكريره تفخيم له وتقرير لاستحقاقه الكرامة لنبوته ، واستنكحها : طلب نكاحها والرغبة فيه[٣]

فانظر كيف رجع من الغيبة إلى الخطاب ؛ ليخص المخاطب وحده. قال صاحب البحر المحيط في تفسيره: وعدل عن الخطاب إلى الغيبة في النبي، (إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ) ، ثم رجع إلى الخطاب في قوله : (خَالِصَةً لَّكَ) ، للإيذان بأنه مما خص به وأوثر[٤].

فنلاحظ أن سياق الآية الكريمة بدأت بخطاب النبي ﷺ (أحللنا لك) ثم عدل عن ذلك إلى الإخبار عنه بطريقة الغيبة (إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ) ، ثم عدل عن ذلك مرة أخرى إلى طريقة الخطاب (خَالِصَةً لَّكَ). إيذانا بأنه مما خص به لشرف نبوته وتقرير لاستحقاقه الكرامة لأجله . واحتج به أصحابنا على أن النكاح لا ينعقد بلفظ الهبة لأن اللفظ تابع للمعنى وقد خص عليه الصلاة والسلام بالمعنى فيختص باللفظ ، والاستنكاح طلب النكاح والرغبة فيه[٥].

ومن مواطن هذا العدول أيضا قوله تعالى : (عَبَسَ وَتَوَلَّى{١} أَن جَاءهُ الأَعْمَى{٢} وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{٣}) [٦] .

في هذه الآية الكريمة لم يقل : عبست و توليت، حيث لم يواجه الله تعالى بالخطاب، رفقا به وملاطفة؛ لأن مواجهة العتاب من رب الأرباب من أصعب الصعاب [٧].

وقيل : وفي التعبير عنه (ﷺ) بضمير الغيبة إجلال له (ﷺ) لإيهام أن من صدر عنه ذلك غيره لأنه لا يصدر عنه (ﷺ) مثله كما أن في التعبير عنه (ﷺ) بضمير الخطاب في قوله سبحانه:

---

١ – ينظر: فتح القدير ٢٠٣/٣ .
٢ – سورة الأحزاب آية/ ٥٠ .
٣ – الكشاف: ٣٤١/٥ .
٤ – البحر المحيط: ١٦٤/٩ .
٥ – الكشاف: ٣٤١/٥ ،وينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل:١٧/٥
٦ – سورة عبس آية/١_٣ .
٧ – البحر المديد: ٧/٧ .

Issn : 2071- 6028

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى). ذلك لما فيه من الإيناس بعد الايحاش والإقبال بعد الإعراض والتعبير عن ابن أم مكتوم بالأعمى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول (ﷺ) وتشاغله بالقوم، وقيل إن الغيبة أولا والخطاب ثانيا لزيادة الإنكار وذلك كمن يشكو إلى الناس جانيا جنى عليه ثم يقبل على الجاني إذا حمى على الشكاية مواجها بالتوبيخ وإلزام الحجة وفي ذكر الأعمى نحو من ذلك لأنه وصف يناسب الإقبال عليه والتعطف وفيه أيضا دفع إيهام الاختصاص بالأعمى المعني وإيماء إلى كل ضعيف يستحق الإقبال من مثله على أسلوب لا يقضي القاضي وهو غضبان[1].

المبحث الثاني

العدول من المخاطبة إلى الغائبة

ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى (لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ{١٢})[2] ففي هذه الآية الكريمة التي وردت في سياق حديث الافك عدول يتمثل في قوله عز وجل : (ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ). حيث اسند فعل الظن إلى الاسم الظاهر (والاسم الظاهر من باب الغيبة)[3]، لا إلى ضمير المخاطبين الملائم لظاهر السياق (ظننتم)... وهو عدول يؤدي دوره في تجسيد المبالغة في عتاب الله عز وجل للمخاطبين؛ففي التحول عن مخاطبتهم (سمعتموه) إلى الإخبار عنهم (ظن المؤمنون) إشعارهم بأنهم حين أفاضوا في هذا الحديث الذي آذى رسول الله (ﷺ)، فلم يبادروا إلى نفيه أو يهاجروا بتكذيب مروجيه، قد تنكبوا– وهم المؤمنون – النهج الأمثل الذي تقتضيه صفة الإيمان[4]، ومن ثم كان إخراج هذه الصفة فيهم مخرج الشك مبالغة في هذا العتاب وتحذيرا من الارتكاس في مثل هذا المسلك، وذلك في قوله سبحانه بعد ذلك (يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{١٧})[5].

ومن المواطن القرآنية للتحول من الخطاب إلى الغيبة كذلك قوله سبحانه وتعالى:(وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ{١٦٧} يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ

---

١ – التفسير الكبير: ٣٥٣/١٦ ،وروح المعاني: ١٦٧/٢٢_١٦٨ .

٢ – سورة النور أية/١٢ .

٣ – ينظر: مواهب الفتاح / ضمن شروح التلخيص: ٤٦٢/١ ،والبحر المحيط: ٢٤/١ .

٤ – الكشاف: ٦٥/٣ .

٥ – سورة النور آية/ ١٧ .

Issn : 2071- 6028

الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{١٦٨} إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{١٦٩} وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ{١٧٠})[١].

قال الرازي في تفسيره:(إن الضمير في قوله (لهم) يعود على (الناس) في قوله:(يذهبكم أيها الناس) (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ{٢١})[٢]

فعدل عن المخاطبة إلى المغايبة على طريق الالتفات مبالغة في بيان ضلالهم، كأنه يقول للعقلاء: (أنظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون)[٣].

قال ابن عباس: نزلت في اليهود، وذلك حين دعاهم رسول الله إلى الإسلام، فقالوا: نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، فهم خير منا، وأعلم منا، فعلى هذه الآية مستأنفة، والكناية في (لهم) تعود إلى غير مذكور، إلا أن الضمير قد يعود على المعلوم، كما يعود على المذكور، ثم حكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا : (بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا)[٤]

ومن مواطن هذا العدول أيضا قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ{٢٢})[٥].

قيل: ما الفائدة في صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة؟

الجواب فيه وجوه:

الأول: قال صاحب (الكشاف): المقصود هو المبالغة كأنه تعالى يذكر حالهم لغيرهم لتعجبيهم منها ، ويستدعى منهم مزيد الإنكار والتقبيح[٦] .

الثاني: قال أبو علي الجبائي: إن مخاطبته تعالى لعباده ، هي على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام، فهي بمنزلة الخبر عن الغائب وكل من أقام الغائب مقام المخاطب، حسن منه أن يرده مرة أخرى إلى الغائب.

---

١ – سورة البقرة من آية/ ١٦٧_١٧٠ .

٢ – سورة البقرة آية/ ٢١ .

٣ – التفسير الكبير: ١٧/٣ ، روح المعاني: ٢/ ٩٦ .

٤ – ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: ٢٦/١ .

٥ – سورة يونس آية/٢٢ .

٦ – ينظر: الكشاف: ٧/٣ .

Issn : 2071- 6028

الثالث: هو الذي خطر بالبال في الحال ، أن الانتقال في الكلام من لفظ الغيبة إلى لفظ الحضور فانه يدل على مزيد التقرب والإكرام . وأما ضده وهو الانتقال من لفظ الحضور إلى لفظ الغيبة ، يدل على المقت والتبعيد.

أما الأول: فكما في سورة الفاتحة: (الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{٢} الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ{٣} مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ{٤} إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{٥}) [١]. وهذا يدل على أن العبد كأنه انتقل من مقام الغيبة إلى مقام الحضور، وهو يوجب علو الدرجة، وكمال القرب من خدمة رب العالمين.

وأما الثاني: فكما في هذه الآية ، لأن قوله : (حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ) خطاب الحضور، وقوله: (وَجَرَيْنَ بِهِم) مقام الغيبة فههنا انتقل من مقام الحضور إلى مقام الغيبة، وذلك يدل على المقت والتبعيد والطرد ، وهو اللائق بحال هؤلاء ، لأن من كان صفته أنه يقابل إحسان الله تعالى إليه بالكفران، كان اللائق به ما ذكرناه[٢].

وذكر صاحب البحر المحيط : (إن الحكمة في ذلك هنا هي أن قوله : (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) مؤمنون وكفار، والخطاب شامل، فحسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح على الشكر. ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة فيرجع ، فلما ذكرت حالة الأمر في آخرها إلى أن الملتبس بها هو باغ في الأرض بغير الحق، عدل عن الخطاب إلى الغيبة حتى لا يكون المؤمنون يخاطبون بصدور مثل هذه الحالة التي آخرها البغي) [٣]. ولعلنا نلاحظ أن مرد الاختلاف بين الآراء الثلاثة هو تعدد زوايا النظر إلى وجه انطباق معنى الغيبة بعد الحضور ، أو لنقل (غيبة الحضور)على هؤلاء الفرحين بالنعمة دون تذكر المنعم ، فهم في منظور الرأي الأول كالأحمق المأفون الذي يشار إليه _ في حضوره _ تعجيبا من انحرافه وتحذيرا من شناءة مسلكه، وهم في المنظور الثاني كالمبغض الممقوت الذي تتخطاه الأعين وتنصرف عنه النفوس فلا يحظى من جلسائه باهتمام ولا يظفر منهم بخطاب ، وهم في منظور الأخير كالحاضر الشارد الذي استشعر الأمان في واقعه ، فجمع به خياله وسبح به فكره بعيدا عن هذا الواقع غافلا عما حوله ومن حوله فيه.

---

١ – سورة الفاتحة من آية /٢_ ٥ .

٢ – بنظر: المحرر الوجيز: ٣٤٨/٣ ، والتفسير الكبير: ٢٥٩/٨ .

٣ – البحر المحيط: ٢٨٣/٦ .

Issn : 2071- 6028

ومن تلك المواطن كذلك قوله عز وجل: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّاباً رَّحِيماً{٦٤}) [١].

نلاحظ في هذه الآية الكريمة انه (عدل عن الخطاب في قوله: (وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ). ولم يقل: واستغفرت لهم ،تفخيما لشأنه ، وتنبيها على أن من حقه الرسول أن يقبل أعتذر التائبين، وان عظم جرمهم ، ويشفع لهم ، ومن جلالة منصبه أن يشفع في عظائم الذنوب وكبائرها) [٢].

وتابعه في ذلك الأندلسي في تفسيره[٣]. ومن العدول في هذا المجال قوله تعالى: (وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) [٤]. قال الزمخشري في تفسيره: (قوله تعالى : (فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) التفات حسن، كأنه قال لملائكته وخواص خلقه: فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم: هم المضعفون. فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون. والمعنى: المضعفون به، لأنه لابد من ضمير يرجع إلى ما، ووجه آخر: وهو أن يكون تقديره: فمؤتوه اولئك هم المضعفون. والحذف لما في الكلام من الدليل عليه، وهذا أسهل مأخذا، والأول أملأ بالفائدة) [٥].

وقال الآلوسي: (والالتفات عن الخطاب حيث قيل: فأولئك دون فأنتم للتعظيم كأنه سبحانه خاطب بذلك الملائكة (عليهم السلام) وخواص الخلق تعريفا لحالهم، ويجوز أن يكون التعبير بما ذكر للتعميم بأن يقصد بأولئك هؤلاء وغيرهم) [٦].

ومن المواطن القرآنية للتحول عن الخطاب إلى الغيبة كذلك قوله سبحانه وتعالى :(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ{٩٢} وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ{٩٣}) [٧]

قال الزمخشري: (والأصل: وتقطعتم ، إلا أن الكلام حرف إلى الغيبة، كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم، ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما أرتكب هؤلاء في دين الله . والمعنى : جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا، كما يتوزع الجماعة الشيء ويتقسمونه ، فيطير لهذا نصيب ولذاك نصيب، تمثيلا لاختلافهم فيه، وصيرورته فرقا وأحزابا شتى) [٨].

---

١ – سورة النساء آية/٦٤ .

٢ – البحر المديد: ٤٤٨/١ ،و ينظر : روح المعاني ١١٣/٤ ،و فتح القدير: ١٦٨/٢ .

٣ – ينظر: الكشاف: ١/ ٤٢٧ ،و البحر المحيط: ١٨٠/٤ .

٤ – سورة الروم آية/ ٣٩ .

٥ – الكشاف: ٢٥٧/٥ ،و ينظر : البحر المحيط: ٨٧/٩ .

٦ – روح المعاني: ١٥/ ٣٧٤ ،

٧ – سورة الأنبياء: ٩٢_٩٣ .

٨ – الكشاف: ٢٥٨/٤ ،و ينظر: روح المعاني: ٤٦٢/١٢ .

Issn : 2071- 6028

وقد ذكر البلاغيون أن في هذا العدول تقبيحا لما يقدم عليه المخاطبون من تحزب وتشرذم، فكأنه سبحانه (ينعى عليهم ما أفسدوه إلى آخرين، ويقبح عندهم ما فعلوه، ويقول: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله، فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا) [1].

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله صحبه ومن تبعهم وسار على نهجهم واتبع ملتهم إلى يوم الدين وبعد.

فقد تم هذا البحث بعونه تعالى، وهذه أهم ما توصلت إليه في بحثي المتواضع هذا من نتائج استخلصها كالآتي :_

١_ إن النص القرآني ينساق في نظام معجز محكم ،يشبه بعضه بعضا ويتعلق بعضه برقاب بعض في كل مكونات النص القرآني.

٢_ إن التعبير القرآني قد يعدل من المخاطبة إلى الغائبة أو من الغائبة إلى المخاطبة وكل يتبع سياقه .

٣_ أينما وجد العدول في القرآن الكريم وجد التركيب الفني والجمالي ، القرآن الكريم وظف هذه البنية العدولية من خلال عدوله من المخاطبة إلى الغيبة وبالعكس .

٤_ عرف العدول بأنه مجاوزة السنن المألوف بين الناس في محاوراتهم ، لتحقيق سمة جمالية في القول تمتع القارئ ، وتطرب السامع وبها يصير نصا أدبيا.

٥_ إن من أسباب العدول من الغيبة إلى المخاطبة أو من المخاطبة إلى الغيبة لأجل التقبيح لما يقدم عليه المخاطبون أو لأجل التمييز في أمر ما أو لأجل التخصيص أو للمبالغة أو لأجل المقت والطرد أو لأمور أخرى، وكل ذلك وغيره قمت بذكره من خلال كتابتي لهذا البحث المتواضع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الباحثة

---

١ – المثل السائر: ١٦٨ ،و ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٢٢٥/٤ .

Issn : 2071- 6028

المصادر والمرجع

القران الكريم

١. اعجاز القرآن، القاضي ابو بكر محمد بن الطيّب(ت٤٠٣هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٨م.
٢. البحر المحيط، ابو حيان الاندلسي، (٧٤٥هـ)، مطبعة النصر الحديثة، الرياض، ١٩٧٠م.
٣. البحر المديد، أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الادريسي الشاذلي الفاسي ابو العباس، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢٠٠٢م-١٤٢٣هـ).
٤. البديع، لابن المعتز (عبد الله بن محمد. ٢٩٦هـ) تحقيق: افناطوس كراتشكوفسكي ١٩٣٥م- لندن.
٥. تفسير البيضاوي، انوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين ابو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار احياء التراث العربي، بيروت.
٦. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (١٤١٨هـ)، مطابع أخبار اليوم.
٧. التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخر الدين الرازي (٦٠٦هـ)، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.
٨. تفسير، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، (١٢٧٠هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.
٩. تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، لعبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) (ت٦٨هـ) جمعه مجد الدين ابو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (٦٨هـ) دار الكتب العلمية، لبنان.
١٠. رؤية في العدول عن النمطية في التعبير القرآني، طبعة دون دار نشر، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ط١.
١١. العين، الخليل بن احمد الفراهيدي (١٧٥هـ)، تحقيق:د.مهدي المخزومي ود. ابراهيم السامرائي، ١٩٨٠م، دار الرشيد، بغداد.

Issn : 2071- 6028

١٢. فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (١٢٥٠هـ) دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١(١٤١٤هـ).
١٣. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ابو القاسم محمود بن عمرو بن احمد الزمخشري جار الله (٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣(١٤٠٧هـ).
١٤. لسان العرب، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري، (٧١١هـ) مطبعة بولاق.
١٥. المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين نصر الله المعروف بأبن الاثير (٦٣٧هـ) ، تحقيق: د.احمد الحوفي و د.بدوي طبانة ، ط١، ١٣٧٩هـ-١٩٥٩م، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة .
١٦. مجاز القرآن، ابو عبيد معمر بن المثنى (٢١٠هـ) ، تحقيق: د.محمد فؤاد سزكين ، القاهرة، ١٩٥٤م.
١٧. المحرر الوجيز ، ابو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الاندلسي المحاربي (٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٨. مقاييس اللغة ، ابن فارس ، تحقيق : عبد السلام محمد هاروت، ط٢، ١٣٩١هـ-١٩٧١م ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر .
١٩. المنزع البديع في تجنيس اساليب البديع، ابو محمد القاسم السجلماسي (مجهول الوفاة) انتهى من كتابه هذا في (٧٠٤هـ)، تحقيق : علال الغازي ، ط١، الرباط، ١٠٤١هـ-١٩٨٠م.
٢٠. مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ، ابن يعقوب (شروح التلخيص) .
٢١. النكت في اعجاز القرآن ، الرمادني (ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن) ، طبع دار المعارف .

Issn : 2071- 6028